أيوب علمي

الجوهرة الزرقاء

رواية

دار البسمة للنشر الإلكتروني

الجوهرة الزرقاء

اسم الكتاب: الجزهرة الزرقاء
اسم الكاتب: أيوب علمي
نوع العمل: رواية
الرقم الدولي EBIN: 16-1-443-260501
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2026م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934
@ bassmabook
bassmabook@gmail.com
المملكة المغربية

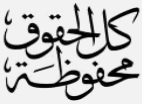

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. ولا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأي طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

الجوهرة الزرقاء

رواية

أيوب علمي

مقدمة

أنا إنسانٌ غريبٌ، لا أعرف نفسي جيدًا، لكنني أحاول أن أعرفها، وأن أصاحبها، وأن أشعر بنبضاتها. رغم أنها هجرتني ولم تعد ترغب في العودة، أصبحتُ أطفو في دروب الليل كأوراق الخريف، بينما الناس نائمون، وأنا أملأ روحي بالصمت والهدوء.

لم أعد أهتم بكلام الآخرين، ولم تعد لدي القدرة على الاستماع لأحاديثهم طويلًا. صرت أعيش في عزلة، كأنني أقطن بين خيوط العنكبوت، حتى أصبحتُ أسيرَ الليل.

أحمل قلمًا وأوراقًا، وأضعها على طاولةٍ خشبية، وأحضّر شايًا بالنعناع ليوقظني طوال الليل، رغم أنني أوهم نفسي بأنني سأنام لاحقًا. أكتب كل ما أشعر به، وكل ما عشته في حياتي وطفولتي، حتى صارت غرفتي مكتظة بالأوراق التي لم تعد تكفي لاحتواء شغفي بالكلمات.

ورغم أنني ما زلت في ريعان شبابي، فقد أثقلتني أفكاري الغريبة والفلسفية، حتى بدأ الشيب يتسلل إلى

شعري الأسود دون أن أشعر، لأن النوم لم يعد يرافقني. وعندما أتحدث في مجلسٍ ما، لا أنطق إلا بجملة واحدة، لكنها تترك المستمع في دهشة.

منذ طفولتي، كنت بارعًا في فصاحة لساني، ووجدت في الكتابة وسيلتي للتعبير، كأنها مصباحٌ يضيء عقلي ويدفعني إلى التأمل دون تعب.

نشأتُ في بيئة مليئة بالبساطة والطيبة، كنا كأننا سرب من الطيور الجميلة التي لا تعرف إلا الخير. كنا نعيش كإخوة، لا نقصي أحدًا، ونلعب كخلية نمل على أطراف القرية.

وعندما يشتد بي التعب، كنت أهرب إلى الطبيعة، إلى الأشجار والهدوء، لأستعيد طاقتي.

هذه الرواية ليست مجرد حكاية بالنسبة لي، بل تجربة تعلمتُ منها كيف ينسج الزمن أرواحنا، وكيف ينمو الصبر داخل الإنسان.

هي رواية يمتزج فيها الواقع بالخيال، أردتُ من خلالها أن أزرع بعض الحكم، وأن أترك في قلب القارئ أثرًا يوقظه من غفلته.

هكذا حكى قلبي قصة تلك الجوهرة التي غيّرت حياتي...

من حلمٍ إلى حقيقة، ومن حقيقةٍ إلى حلم.

لم تكن مجرد جوهرة، بل كانت شيئًا يسكن أعماقي.

أيها القارئ...

اقرأ هذه الرواية بقلبك، لا بعينيك فقط، فربما تجد فيها شيئًا يشبهك.

قراءة ممتعة

مقطع افتتاحي

بين أنين الحب وصوت الطيور، على صخرة كبيرة تُلقّب بصخرة العروسة، جانب قريتنا، كانت هيفاء ممددة على رجلي، وبيدي أرتب خصلاتها السوداء. فقلت لها بمزحة فقط، ولم أكن أعلم معنى هذا الكلام:

هيفاء، إن متُّ يومًا، هل ستصبرين؟

نظرت إليّ بوجه حزين، وقالت:

لا تقل هكذا، لا يمكنني أن أصبر حتى على افتراقي عنك. أنت رئتي التي أتنفس بها في هذه الحياة.

لكن بعد هذا المساء، سنعرف ما يختاره لنا القدر.

القسم الأول

نداء النفس بين الحلم والبحث

الفصل الأول

الجوهرة في سكون الليل

في سكون الليل الهادئ، أتت تلك الجوهرة الزرقاء وأخذتني من فراشي دون وعيٍ كامل، كأنها لا تعرف بأنها ضيفة ويجب عليها أن تطرق بابي لتستأذن بالدخول. لكنها لم تستأذن، كأنها تعرفني جيدًا. أخذتني من فراشي الدافئ، وانطلقت بي نحو الجبل.

كان الليل باردًا جدًا، والضباب يملأ الدروب والمنازل، ولم أكن أرى شيئًا سوى تلك الجوهرة الزرقاء. بدأت عيناي تدمعان، كأن جسدي شعر بما أمرّ به حاليًا، رغم أنني كنت في حالة بين النوم واليقظة.

كنت أتبعها دون تفكير، كأن قوة خفية تسوقني نحوها. وفجأة، سقطتُ أرضًا، فعادت تطير حولي، وكأنها منحتني طاقةً أعادت إليّ القدرة على الوقوف.

نهضتُ بصعوبة، وقلت لها:

إلى أين تأخذينني؟ ولماذا أخرجتِني من نومي إلى هذا الجو البارد والمظلم؟

اختفى نورها فجأة.

تلفّتُّ حولي بقلق، وقلت بصوتٍ خافت:

أين أنتِ؟ لماذا تركتِني هنا؟ أنا لا أعرف هذا المكان...

مرّت لحظات ثقيلة، ثم عادت الجوهرة لتضيء من جديد، وكأنها لم تختفِ أصلًا. فأتبعتها مرة أخرى، حافي القدمين، والشوك يلسعني في هذا الطريق القاسي.

وصلت بي إلى شجرةٍ كبيرة ذات أغصان ملتوية، يسميها أهل القرية "شجرة البومة". كانت شامخة على ضفة الجبل، ويطل عليها القمر كأنه فانوس مثل الذي يكون معلّقًا في غرفتنا الترابية.

توقفت الجوهرة تحت الشجرة تحوم في الهواء، فجلستُ بجانبها. رفعتُ رأسي نحو السماء، فرأيت النجوم كأنها قريبة مني، وأصوات الصراصير كأنها تملأ أذني، وصوت البومة يخفف من خوفي، بينما خرير المياه في الوادي يمنحني بعضًا من الطمأنينة.

لكن، في تلك اللحظة...

شعرتُ أنني لست وحدي.

كأن هناك شيئًا ما ينتظرني في هذا الليل الغامض.

الفصل الثاني

أنا نفسك

طال نظري إلى تلك الجوهرة؛ كانت على شكل غيمة، لكنها شديدة الضوء الأزرق، ليس لها ملامح أو شكل أو جسم مثلنا نحن البشر. كانت عندما تتكلم يشعّ ضوؤها أكثر فأكثر، وما زلتُ منبهرًا ومندهشًا منها. تمعّنتُ فيها جيدًا، ثم قلت لها:

ما أنتِ؟

أجابتني بصوتٍ هادئ، لكنه عميق:

أنا نفسك.

تراجعتُ قليلًا عنها، وشفتاي ترتعشان من الصدمة والخوف، وقلت:

نفسي؟ وهل تكون النفس على شكل جوهرة؟

قالت:

نعم، أنا نفسك، وأنت من جعلتني جوهرة، بصفاء نيتك، وخلقك، وحبك للخير. أنا أكون معك دائمًا، أسمعك، وأشعر بك، لكنك لم تعد تنصت إليّ.

شعرتُ بشيء ما ينهار بداخلي، كأنني كنت أبني ثقتي على وهم.

قلت لها:

إن كان هذا صحيحًا، فلماذا أتيتِ بي إلى هنا؟ ولماذا أخرجتِني من عالمي؟

أجابت:

لأنك لم تعد تسمعني هناك. كنت تعيش على هواك، وتنسى صوتي. بدأتُ أضعف داخلك، كالشجرة العمياء تعيش وسط طبيعتك الخالية من اخضرار، حتى كدتُ أختفي وسط ضجيج هذه الحياة.

سكتت لحظة، ثم تابعت:

جئتُ لأتغذى، لأتنفس، لأعود كما كنت. جسدك هو عالمي، وأنا روحه التي أهملتها.

ارتجف جسدي، وكأن كلماتها اخترقت عروقي. كان صوتها يشبه صوتي، لكنه أكثر صفاءً وعمقًا وفخامة مني.

فجأة، بدأ ضوؤها يخفت تدريجيًا حتى اختفت.

بقيتُ وحدي.

نهضتُ مذعورًا، أبحث عنها بين الأشجار والأعشاب، وأنا أنادي:

يا جوهرة الليل، يا نفس من تسكن جوفي، هل هذا شيء جميل بالنسبة لكِ أن تتركيني في ذبول الليل وأنا لا أعلم ما أفعل؟ هيا، أخرجي وأعيديني إلى نومي كي أستفيق مجددًا إلى الحياة الواقعية. هذا الجو جميل، لكنني سأشتاق إلى أمي وأبي وإخوتي.

لكن لا جواب أصبح يتردد بين أذني.

شعرتُ أنني أبحث عن شيءٍ خرج مني ولن يعود يريد العودة أبدًا.

وقفتُ في ذلك الظلام، تائهًا، كأنني فقدت جزءًا من روحي.

لكنني أقسمتُ في داخلي...

أنني سأفهم ما يحدث، مهما كلّفني الأمر.

الفصل الثالث

بيت العجوز

حينها لمحتُ منزلًا قديمًا بين الأشجار، قريبًا مني. توجهتُ نحوه بخطواتٍ مترددة، ثم طرقتُ الباب.

فتحت لي امرأة عجوز، منحنية الظهر، شعرها كان كثير البياض كالأعشاب الجافة بين وادٍ منسي. كانت عيونها صغيرتان جدًا، لم أرَ سوى لُبِّهما الأسود، غارقتين في ظل رموشها، لا يظهر منهما سوى سوادٍ عميق.

قالت لي بصوتٍ ثقيل، وهي تتكئ على عصا معوجة:

ما بك يا بني؟ ما الذي أتى بك إلى هذا الليل الغريب؟

قلت لها:

أبحث عن نفسي، لقد أخذتني من نومي إلى هذا المكان، ثم اختفت، وتركتني تائهًا.

نظرت إليّ طويلًا، ثم قالت:

تفضل، ادخل. يبدو عليك التعب، والبرد قاسٍ هذه الليلة.

دخلتُ وجلستُ قربها، فقدمت لي صحنًا من حساءٍ دافئ، وجلست بجانبي.

قالت:

حدّثني، كيف كانت تلك "النفس" التي رأيتها؟

رددتُ عليها بصوت محتشم:

كانت على شكل جوهرة زرقاء جميلة جدًا، نورها كان يضيء طريقي في هذا الظلام.

صمتت لحظة، ثم سألتني فجأة:

هل تحب فتاة؟

تفاجأتُ من سؤالها، وشعرتُ بشيءٍ يتحرك في داخلي، أظنه قلبي قد انكسر، حتى بدأت عيناي تدمعان دون أن أشعر.

قالت:

تلك الجوهرة هي الفتاة التي تحبها.

رفعتُ رأسي بسرعة، وقلت:

ماذا؟ كيف ذلك؟

قالت بهدوء:

هي تحبـك أيضًـا، لـذلك التقـت أرواحكمـا في هـذا الحلم. لم تقل لك إنها نفسك عبثًا، بل لأنها ترى نفسها فيك، وتراك كلّ شيء في حياتها.

أبقيتُ صامتًا، تتصارع الأفكار في رأسي.

كيف تكون نفسي، وفي الوقت نفسه هي الفتاة التي أحبها؟

خرجتُ من عندها، وما زلتُ غارقًا في الشك.

هل كانت العجوز صادقة... أم أنها كاذبة؟

أصبحت غريبًا، كأنني أبحث عن شيء ما، وأنا تائه وسط هذا السراب الليلي. ما زلت أدس برجلي التراب، لكنني لا أشعر بتلك الحبيبات الترابية تحت قدمي. أترقب نفسي أين توجد، كأنها ذهبت إلى مكان ما.

بعض الأحيان تتساءل في جوفك:

هل هذه الحياة تهديك أشياء لتسعدك أم لتهدمك؟

مررتُ بجانب كهفٍ مهجور، فجلست قربه أبحث عن لحظة هدوء، فقلت:

سأبقى هنا قليلًا حتى يشرق قلبي وتعود نفسي إليَّ، كي تخرجني من هذا السبات الأبدي.

لكنني وجدت أنني في محطة الحياة فارغة، وليس هناك من ينتظر الرحيل في هذا العالم العجيب.

ثم رأيت عشّ نملٍ قريبًا مني. التقطتُ نملة بين أصابعي، وقلت لها:

أنتِ أشرفُ من بعض البشر الذين يعيشون معنا، وإن دخلتِ بيتي يومًا ورأيتك، سأستقبلكِ بكل حفاوة، وأضعُ لكِ طعامًا بجانب وسادتي، لأنني أعرف أن الغدر لا يجري في دمك.

ثم توقفتُ فجأة...

ونظرتُ إليّ.

ماذا أفعل؟ هل جننتُ حتى صرتُ أتحدث مع نملة؟

ضحكتُ بمرارة، ثم عدتُ إلى صمتي.

كان الليل ساكنًا بشكلٍ مخيف، حتى الأشجار لم تتحرك أغصانها كي أشعر أنني على قيد الحياة.

رفعتُ رأسي وقلت:

يا ليل، تكلّم معي وقل لي إنني في حلم فقط، وليس في بؤرة الخيال. هيا تكلّم، لماذا لا أحد يتكلم معي؟ وأنا أعرف أن الشجر والنباتات والحشرات والحيوانات لا يكذبون

كما البشر، فالنفاق يجري في دمهم. هيا تكلّمي يا شجرة وطمئنيني بأنني لست في حلم، هيا تكلّموا.

أعرف أن نفسي سترجع يومًا وتأخذني من هذا الليل البارد المظلم.

لكن الليل لم يُجب، كأنه خاصمني.

وبقيتُ وحدي،

أنتظر شيئًا لا أعرفه.

الفصل الرابع

على هيئة جوهرة

كنتُ أواصل سيري بلا هدف، وقد استنزفت طاقتي تمامًا. الطريق بدا بلا نهاية، كأنني أمشي داخل فراغ لا حدود له.

فجأة، لمحتُ رجلًا نائمًا تحت جذع شجرة.

اقتربتُ منه وقلتُ:

هل أنت أيضًا أخذتك نفسك لتتغذّى في هذا الجوّ الليلي؟

فتح عينه بصعوبة، ونظر إليّ باستغراب:

ماذا تقول؟ هل تدرك ما تنطق به؟

قلتُ له، دون أن أشعر:

أنت أيضًا لا تفهمني ولا تصدقني. لا أحد يصدق أنني خرجتُ إلى هذا الخيال بسبب نفسي.

ردّ بكل أريحية:

بني، لا تتعصّب، فقط أردت أن أتأكد من كلامك.

قلتُ له بدافع الفضول:

إذًا، ماذا تفعل هنا في هذا الليل؟

قال:

أنا رجل فقير، بلا عائلة، أنام هنا كي لا أسمع كلامًا يجرحني من أفواه كريهة.

تيبّستُ من كلامه وقلتُ له:

أين نحن الآن؟ أنا لا أعرف هذا المكان.

قال بكل افتخار:

نحن في عالم النسيان، لا يقطنه إلا من طرحته الحياة وعقّمته من جوفها.

قلتُ له بدهشة:

أنا جئتُ إلى هنا بسبب نفسي، ليس بإرادتي.

بدأ ينظر إليّ بغرابة، كأنه يعرف شيئًا عن هذا العالم، لكنه لم يرد أن يبوح به.

جلستُ قربه، وقلت:

لو كنتُ في حياتي الحقيقية، لأعطيتك ما تحتاجه... لكن انظر إليّ الآن، لا أملك شيئًا.

قال وهو يحدّق فيّ:

أنت لا ترى نفسك كما أراك أنا.

سألته بقلق:

كيف تراني؟

قال:

أراك على هيئة جوهرة زرقاء.

تجمّدتُ في مكاني.

ماذا؟! جوهرة؟

قال بكل ثقة:

نعم.

قلتُ في جوفي:

إذًا أنـا حقًـا في حلـم الخيـال... لكـن نفسي- مـا زلـت أترقّبها ساعة بعد ساعة، رغم أن هذا الحلم طال كثيرًا.

غادرتُ مكان ذلك الرجل، وتوجهتُ نحو شجرة كبيرة فيها أعشاش كثيرة للطيور، وقلت:

لماذا تعشش هذه الطيور فوق الأشجار، وليس في التراب بين الحشائش؟ هل لأنها لا تثق في الإنسان، أم لأنها أكثر ذكاءً منا؟

وتركتُ الإجابة للزمن.

وأنا أتابع طريقي المتلاشي، قصدتُ أناسًا يتدفؤون حول النار. رأيتُ أمًّا وأبًا وأخوين، فقلت:

السلام عليكم.

ردّوا:

وعليكم السلام.

قلتُ لهم:

أنتم تشبهون عائلتي، وقد اشتقتُ إليهم.

قال الأب، وهو يحرك الحطب:

نعم يا بني، هذه الحياة فيها تشابه.

قلتُ لزوجته:

أنتِ تشبهين أمي.

بدأت تدمع عيناها، وقالت:

بني، لقد اختفى ابني في مثل عمرك.

قلتُ لها:

وهل لا أشبهه؟

قالت:

أنت فقط... جوهرة زرقاء.

قلتُ بدهشة وبعصبية:

أنتم أيضًا ترونني على شكل الجوهرة الزرقاء؟

ثم سكتُّ قليلًا، وشعرت بثقل في داخلي، وقلت:

لماذا يا زمن أصبحت قاسيًا عليّ هكذا؟

ابتعدتُ عنهم مكسورًا، أتمايل بين الأشجار، حتى وصلتُ إلى وادٍ فيه قصب كثيف. استلقيتُ على ظهري، وعيناي تتابعان القصب كأنه طريق قطار تحت الرياح.

قطفتُ غصنًا من القصب، وصنعتُ منه نايًا، وبدأت أعزف به في صمت الليل، لعلّ نفسي تسمع هذا الصوت وتقترب إليّ.

قلتُ لها بالعتاب بداخلي:

لماذا تركتِني؟

وبينما كنت أعزف، سمعت صوتًا يخرج من داخلي:

مرحبًا يا جسدي، ها أنا عدتُ إليك.

قلتُ:

ماذا؟ هل أنتِ نفسي؟

قالت:

نعم.

لهذا عندما يراك الناس يقولون إنك الجوهرة الزرقاء. لـم أهجـرك، بـل تركتـك تعـيش في هـذا السرـاب اللـيلي، لتتأمل كل شيء، كي أتغذّى أنا.

قلتُ لها، وأنا لم أستوعب بعد:

لمـاذا فعلـتِ بي هكـذا؟ أنـا كنـت دائمًـا أقـدّرك وأحترمك. لم أظن يومًا أنك ستفعلين بي هكذا.

قالت:

لا تقل هذا الكلام يا جسدي، أنا أعرف لماذا جئتُ بك إلى هنا.

سـكتُّ قلـيلًا، وقلـبي ينـبض كأنـه أول نـبض لـه في حياته، وارتجف حينها جسدي من البرد، ثم قلتُ لها:

سـامحتك، هـل يمكنـك الآن أن تعيـديني إلى حيـاتي الواقعية؟ اشتقتُ إلى هيفاء وعائلتي وأصدقائي.

قالت:

نعم، سأعيدك. لقد تغذّيت جيدًا.

وفجأة، بعد لحظات قليلة، تبخّرتُ من ذلك العالم، وانطفأت تلك الشعلة التي كنت أرى بها ذلك الحلم.

الفصل الخامس

للاستيقاظ

استيقظتُ كأنني كنتُ مُحنَّطًا. كان الحلم لا يتعدّى سبع ثوانٍ، لكنني عشته كأنه أسبوع أو ما يقارب شهرًا. انتُزِعتُ من فراشي، وذاكرتي ما زالت تحاول استيعاب ما رأيته. لم أقوَ على النهوض بسرعة من مكاني، فقد كان ذلك الحلم ما يزال يتبختر في ذهني، ويصنع داخلي موجات تؤلمني في صمت.

خرجتُ من غرفتي قاصدًا بيت أمي، فوجدتها غارقة في النوم. أردتُ فقط أن أسألها عن سباتي العجيب، لكنني تراجعت. خرجتُ لأتفقد ما جرى حول دروب القرية، فوجدت كل شيء على طبيعته، ولم تكن هناك تلك اللمسة أو الرائحة التي شعرت بها في الحلم.

وأنا أمرّ بين دروب القرية قبل طلوع الشمس، ما زلت غارقًا في أفكاري، أسبح فيها دون قارب، حتى وصلتُ إلى منزل حبيبتي. صرخت:

هيفاء! هيفاء!

لم تُجب، لعلها نائمة.

عـدتُ إلى المـنزل، فوجـدتُ أمي تحلـب البقـرة. قلـتُ لها:

صباح الخير أمي.

ردّت بابتسامة:

صباح الخير بني.

قلتُ لها:

أمي، أريد أن أسألك شيئًا.

قالت:

تفضل.

قلتُ لها:

هل خرجتُ ليلًا من البيت؟ أم بقيتُ نائمًا في مكاني؟

قالت:

لا يا بني، كنت نائمًا. أبـوك اسـتيقظ واطمأنّ عليكم قبل أن يذهب إلى العمل كعادته.

قلت:

حسنًا أمي.

ثم سألتني:

لماذا؟

قلتُ لها:

مجرد سؤال خطر على بالي.

بدأتُ أتحدث مع نفسي:

هل ما رأيته كان بسبب نفسي، أم أنه مجرد حلم كغيره من أحلام البشر؟

بدأ عقلي يناقشني، ويحاول أن يفهم ما جرى لي. شعرتُ أن هذا السؤال سيظل عالقًا في داخلي، بلا جواب. لم أكن أعلم أن العقل أحيانًا يتبلّد إلى هذا الحد، ولو كنت أفهم ما بي، لما وجدتُ نفسي غارقًا بين أفكاره.

قررتُ أن أذهب عند هيفاء وأسألها. وصلتُ إلى منزلها وطرقتُ الباب. فتحت لي، وكأنني رأيتُ قمرًا يضيء عليّ في عتمة الظلام. عانقتها بقوة.

قالت بصوت لطيف:

لماذا فعلت هكذا؟

قلت:

اشتقتُ إليكِ.

قالت وهي تضحك:

البارحة كنا معًا!

قلتُ لها:

سأحكي لك ما جرى معي، وستفهمينني.

قالت بكل حب:

هيا، لنذهب إلى الطبيعة نتمشّى قليلًا.

وفي الطريق، بدأتُ أحكي لها:

البارحة في الليل، أخذتني نفسي- إلى عالم عجيب، وقالت لي عجوز هناك إنكِ أنتِ تلك النفس التي ظهرت لي على شكل جوهرة.

قالت هيفاء بدهشة:

يا للهول! أنا أيضًا رأيتُ في حلمي أنني نجمة زرقاء أتجول بين الأشجار، وأبحث عنك.

قلتُ لها:

هل تمزحين أم تقولين الحقيقة؟

قالت:

هل تعرفني أمزح في مثل هذا الكلام؟

قلت:

حقًا، يبدو أن حبنا تجاوز حدود الواقع. عندما كنت في ذلك الحلم، التقيتُ بأناس يشبهون عائلتي، وتحدثت مع رجل فقير وعجوز، لكنني لم أجد جوابًا واضحًا. حاولتُ أن أفهم من الطبيعة، ومن الأشجار والليل، لكن لا أحد أجابني.

قالت:

لا تأخذ الأمور بجدية، ربما كنا نفكر في بعضنا فقط، فالتقت أرواحنا في الحلم.

بعد ذلك، قلتُ لها:

هيفاء، أنتِ تعلمين أنني أحلم بأن أصبح شاعرًا كبيرًا. واليوم، في بكرة الفجر، قررتُ أن أرحل لأتعلم من الزمن، لأفهم حكمه وأسراره. لا تقلقي، سأعود يومًا، وسنتزوّج، وننجب أطفالًا، منهم من سيتبع أمهم في جمالها، ومنهم من سيتبع أباهم في شعره.

ثم أضفت:

سأترك لك رسالة عند أمي.

نعم، هكذا هي الحياة، تحاول أن تفهمها، فتجد نفسك أنت بحد ذاتك سؤالًا، وتترك الإجابة للقدر.

لكنني لم أكن أعلم أن ذلك الحلم لم يبقَ سوى حلم يُرى في الأحلام، بل كان بداية الرحيل.

القسم الثاني

هجرة وتعلم بين الزمن

الفصل السادس

رسالة الرحيل

دوّنتُ رسالةً لحبيبتي هيفاء، وتركتها أمانةً عند أمي، وقلت لها:

ها أنا سأذهب في دروب الزمن لأتعلّم جوهر الشعر.

قالت:

بني، لا تخف، فهيفاء ستبقى في أمان الله.

سرجتُ حمار أبي الرمادي، كان صغيرًا لا يتعدّى ذراعًا أو نصفه، صامتًا لا يتحرّك كثيرًا، كثيف الشعر، وفي جبهته بقعة بيضاء. ركبته وقصدتُ القبائل. شعرتُ أن ذلك الحلم، أو السبات، أو الخيال، قد زعزع شيئًا بداخلي، فقررت الرحيل لتحقيق حلمي كشاعر.

وصلتُ إلى بئرٍ لأشرب وأُورد حماري. كان صغيرًا، غير عميق. دلوتُ الدلو إلى قاعه، وأخرجتُ الماء، فشربتُ وشرب الحمار. لاحظتُ أن عينيه تدمعان بلا توقف، كأن دموعه تنساب كندى على أوراق الشجر.

همستُ له:

أتبكي لوحدتك أم تبكي عليّ؟ لا تذرف دموعك، فأنت تؤدي مهامك دون نفاق أو كذب، ولا تفعل شيئًا يغضب الله. أما نحن البشر، فقد أصبحنا نحسد بعضنا ونؤذي بعضنا لأتفه الأسباب، ونفعل ما يغضب الله، ومع ذلك، ربنا كريم. هل تعلم أنني أحب الله أكثر من نفسي؟

لكن حماري المسكين ظلّ صامتًا، ودموعه لا تتوقف، كنهر على ضفاف البحر.

في تلك الأثناء، جاءت هيفاء إلى منزلنا، وسألت أمي:

هل ترك ابنك رسالة؟

ردّت أمي بحنان:

نعم، لقد تركها.

وأعطتها الرسالة، وقالت:

لا تقلقي، لقد ذهب ليتعلّم جوهر الشعر وقسوة الزمن، لكنه سيعود يومًا.

قالت هيفاء بثقة:

أنا أثق به، وكل ما يقرّره أمنحه قبولي.

عـادت إلى منزلهـا كفراشـة في فصـل الربيـع، تمسـك الرسـالة بيديها، وتـركض بفـرح في الطريـق. كانـت رشـيقة، ذات عيون ساحرة، وشعر أسود لامع، وبشرة بيضاء، أغار حتى على وصفها، رغم أنها في خيالي فقط.

دخلت غرفتها، فتحت الرسالة، وبدأت تقرأ:

"حبيبتي هيفاء،

أعلـم أن قلـبي وقلبـك سـيتألمان بسـبب هـذا الفـراق، لكن الصبر جميل.

لا تقلقي عليّ، ستبقين دائمًا قريبة مني، حتى وإن لم تكوني بجانبي. كلما اشتقتُ إليكِ، سأجدك في ذاكرتي، وفي قلبي.

أنتِ تلك النجمة الزرقاء التي تضيء طريقي، حتى في غيابك."

أغلقـت الرسـالة بـبطء، وابتسـمت، لكـن عينيهـا كانتـا ممتلئتين بالدموع، كوردة تحمل الندى في بكرة الصباح.

أما أنا،

فكنتُ أواصل سيري في طريقٍ لا أعرف نهايته، لكنني كنتُ أشعر أنني بدأتُ أقترب من نفسي.

وهكـذا بـدأت الرحلـة، ولـم أكـن أدرك أن سرب هـذا الزمن سيعلمني أكثر مما كنت أبحث عنه في قريتي.

الفصل السابع

امرأة في الخلوة

حينها وصلتُ إلى خيمةٍ تسكنها امرأة كبيرة في السن، سمراء البشرة، نحيفة الجسد، عيناها غاصتا في وجهها من شدة التعب، وملابسها متقشفة كأنها بقايا أثوابٍ أنهكها الزمن.

تنهدتُ في داخلي وقلت لها:

السلام عليكم.

ردّت:

وعليكم السلام.

قلت:

هل يمكنني الجلوس هنا قربك؟

أجابت بصوتٍ هزيل، كأن التعب يسكنها منذ سنوات:

بكل سرور، تفضل.

ثم سألتني:

إلى أيـن أنـت ذاهـب، محمـلًا بهـذه الأمتعـة عـلى حمارك؟

قلت لها:

أنا ذاهب ولا أعرف إلى أين، أظنه القدر قدّر لي ذلك.

قالت:

هل أنت يتيم؟

تبسّمتُ ورددت:

لا، لست يتيمًا، لكنني راحل لأتعلّم قسوة الزمن.

تنهـدت بحـزن، ووضـعت يـديها المنكمشـتين عـلى حجرها، وبدأت تبكي، دموعًا تحمل ألمًا لا يعرفه إلا من ذاق قسوة الحياة، ثم قالت:

يا بني، لو كنت تعرف قسوة الزمن حقًا، لما وجدتني هنا في هذه الخلوة البعيدة عن الناس، أتنفس الصبر يومًا بعد يوم، كأنني شجرة جفّت أوراقها وماتت جذورها.

سكتُّ، وقد تجمّد الكلام في لساني من وقع كلماتها المؤلمة على قلبي الحنين، ثم تابعت حديثها:

كنت أعيش مع أبي وزوجته، لكنها رفضتني، ولم أعد أتحمّل قسوتها، فهربتُ ليلًا بين الجبال، ومضت أعوام

وأنا هنا وحدي... أعيش في هذه الخيمة التي احتضنت ضعفي، وقبلت عليَّ في أصعب الظروف.

لم أستطع الرد، لكنني أدركت قيمة النِّعم التي نملكها. ثم سألتها بصعوبة:

ماذا تأكلين؟

قالت:

الله يرزقني. الرزق بيد الله يا بني. نحن نعيش في هذه الدنيا ونظنها طويلة، لكنها في الحقيقة لحظة. لذلك اصبر، اصبر يا بني، ما دمت تريد أن تفهم الحياة جيدًا.

وفجأة، سقطت بين يديّ وفارقت الحياة.

أغمضتُ عينيها، ودفنتها بجانب خيمتها، وقلت في نفسي:

لقد عشتِ بعزّة، رغم قسوة الحياة، ورفضتِ أن تكوني فريسة لها.

عدتُ إلى حماري، فوجدته ما زال يبكي. همستُ في أذنه:

أعرف أنك تفهمني، لذلك أتحدث معك دائمًا، ولا تظن بأنني أبله عندما أتكلم معك. لماذا تبكي؟ أنت تؤثر

فيّ كثيرًا، توقف قليلًا. أعرف أنك تشعر بحالي، لكنك تخفي حزنك من أجلي.

واصلتُ طريقي، فالتقيت بقافلة متجهة نحو القرية التي أقصدها. كانا رجلين، أحدهما طويل والآخر قصير، يرتديان ملابس تشبه جلود الحيوانات لتحميهما من البرد.

قلت لأحدهما:

سأعطيك هذه الرسالة، وتعاهدني ألا تفتحها حتى تصل بها إلى صاحبها.

قال:

أعاهدك عهد الرجال.

حينئذٍ، حلّ الليل، فأشعلتُ النار، وخفّفتُ عن حماري الأثقال، وأكلتُ قليلًا من الخبز، ولم أنسه، فقد جلبت له الشعير من قريتي.

نمتُ قربه، بين رجليه، لأنني أشعر بدفء بينهما طوال الليل.

وفي المنام، جاءتني امرأة وقالت:

يا شاب، اذهب إلى تلك الخيمة واحفر تحتها، ستجد مالًا.

استيقظتُ مفزوعًا، وقلت في نفسي:

هل حقًا هناك كنز؟

في الصباح، ذهبتُ وحفرتُ المكان، لكنني لم أجد شيئًا.

قلت بذهول واستغراب:

هل كان وهمًا؟ أم حكمة أخرى من حكم هذا الطريق؟

لكن لا جواب أصبحت أفرزه من بين أفكاري المجنونة، كي أهدئ قليلًا من تعب التفكير.

تركتُ خلفي جسدًا فارق الحياة، لكنني حملتُ معي روحًا أثقل من هذه الطريق.

الفصل الثامن

الحمار الأعمى

وصلتُ إلى قبيلةٍ جديدة، وأريد أن أعرف ما بحماري، فما زالت عيناه تدمعان. رأيتُ رجلًا كبيرًا في السن يجلس قرب عين ماء، يستدفئ بأشعة الشمس في الصباح، لأن البرد يتعبه وعظامه لم تعد تقوى عليه. تذكرتُ أن أبي كان ينصحني دائمًا بالجلوس تحت الشمس في الصباح، لأنها مفيدة لصحة العظام.

سألته:

يا سيدي، أريد مساعدتك. حماري منذ أسابيع وعيناه تدمعان، ولا أعرف ما به.

قال لي وهو يشير بإصبعه المنكمش:

اذهب إلى رجل يُدعى "مانت"، هو عشّاب يسكن عند طرف القرية، سيساعدك.

شكرته وأكملت طريقي.

وصلتُ عند العشّاب، كان يسكن في كوخٍ تحت شجرة، وحوله أنواع كثيرة من الأعشاب، تفوح منها روائح قوية. راقبته قليلًا، ثم قلت:

جئتُ من أجل حماري، عيناه تدمعان منذ مدة، وقد تألمت لحاله. هل يمكنك مساعدته؟

لم يُجبني في البداية، كان منشغلًا بترتيب أعشابه، ثم التفت إليّ وقال:

دعني أراه.

بدأ يفحص عيني الحمار، كأنه يدلّكهما، ثم قال:

حمارك لا يرى، إنه أعمى.

قلتُ بدهشة:

لا يمكن! كيف لا يرى وأنا أركبه يوميًا؟

قال:

يا بني، الحمير تستطيع أن تسير في الطرق، حتى لو كانت عمياء.

قلت:

كيف ذلك؟

قال:

سأحكي لك قصة.

ثم قال:

كان لدي حمار أعمى مثله. تركته يومًا في الجبل يرعى، وعدتُ وحدي. وبعد أيام، اشتد عليه العطش، فعاد إليّ وحده في منتصف الليل، يطرق الباب برأسه. ظننتُ أن أحدًا جاء، لكنه كان حماري. كان يدور حول نفسه من شدة العطش، فأخذته وسقيته.

ثم نظر إليّ وقال:

لهذا قلت لك إنه لا يرى، وليس من عدم.

سهوتُ قليلًا، ثم قلت:

صدقت.

حينها أدركتُ أن بعض الأشياء تكون كنزًا بجوارك، لكنك لا تفهمها، ليس لأنك غبي، بل لأن الحياة اختبار.

وفهمتُ أيضًا أن الصبر ليس مجرد تحمّل، بل طريق للتعلّم، وأن الإنسان إذا صبر، صار يرى ما لم يكن يراه.

تقبّلتُ الأمر، وشكرت العشّاب، وأكملت طريقي.

في الليل، وصلتُ إلى شجرة كبيرة، ونمتُ تحتها قرب حماري، كنت أشعر بالدفء بقربه.

رأيتُ في المنام حمامة بيضاء تحلّق فوقي، تحمل رسالة محترقة قليلًا، ثم أسقطتها بجانبي.

استيقظتُ مفزوعًا، وقلت:

هل هذا حلم أم إشارة؟

شعرتُ بشيء سيئ تجاه هيفاء، كأن مكروهًا أصابها.

قلت في نفسي:

لماذا هذا الشعور؟

لكنني لم أجد جوابًا.

نهضتُ، فوجدتُ حماري ميتًا.

جلستُ بجانبه، وقلت:

حتى أنت تركتني في هذا الطريق الصعب، لكنك علمتني درسًا لن أنساه.

حينها أدركتُ أن فقدان من تحب ليس نهاية، بل بداية الحب الحقيقي الذي لم تظهره له، لكن بطعم مختلف.

الفصل التاسع

الشعراء الساخرون

بعد ذلك، واصلتُ السير وحدي، وما زلت لا أصدق أنني سأكمل رحلتي بدون حماري. وبعد خطواتٍ ثقيلة، قابلتُ أشخاصًا يتبادلون إلقاء الشعر، يجلسون قرب أحجارٍ مصفوفة.

قلتُ لهم:

هل يمكنني أن أشارك معكم؟

قالوا:

وهل أنت شاعر أم مجرد سائر؟

وتعالت ضحكاتهم، كأنها سهام تخترق قلبي بصمت.

قلتُ لهم:

تفضلوا، من سيُلقي أولًا؟

قال أحدهم بسخرية:

ألقِ أنت أولًا، لنرَ من أنت. هل كتبت شعرك على صخرة أم على ورقة يقطين؟

واستمرّ ضحكهم.

بدأتُ أتكلم وقلت:

أسرتني الليالي، ومن أجلها تعلّمتُ

لكن ذهب عقلها، وساب فؤادي

ومن ظنّ أن الرفيق سيكون لغزًا

إلى ما أردفتني به الحياة غافاني

يظن الحمقى بأنهم شعراء

بل بألسنتهم ترمي قمارًا بالكلام

لـم أكمـل قصـيدتي، فكـأنهم كـانوا يسـمعون دون أن يفهموا، كأنهم ليسوا شعراء.

غادرتُ المكان، وتركتهم في غفلتهم.

تذكرتُ كلام أبي حين كان يقول لي:

إن لم تتعلم لغز الزمن، فلن تصبح شاعرًا.

أصبحتُ أطفو في هذا الزمن كجذع شجرة فوق بحر، لا يغرقـه بخفتـه، لكنـه في يـومٍ مـا سـيُقذف إلى الشـاطئ، هكذا سيكون أمري في هذا الزمن.

أتأمل في الحياة حتى أنصهر، وأجد نفسي. فقط كنت أعدّ عقلي على التفكر والتأمل.

وأدركتُ أيضًا:

عندما يأتيك شخص ويشكو لك همّه، لا تظنه ثرثارًا بليدًا، بل لأنه رأى فيك قلبًا يفهمه.

ها أنا أكتب الآن، والساعة الخامسة فجرًا. أردتُ أن أتوقف عن كتابة هذه التجربة، لكنني أجد راحتي في سكون الليل، كأنني ما زلت في تلك الرحلة.

قال لي قلبي:

كن قلبًا، وإن لم تكن فؤادًا، فكن إنسانًا متواضعًا.

ثم قال لي:

هل ستترك نفسك هكذا؟ هل ستنهي هذه الرواية دون أن تكملها؟

قلت:

سأكملها غدًا.

قال:

وهل تضمن أنك ستعيش إلى الغد؟

سكتُّ، ثم قلت:

لا.

قال:

إذًا اكتب الآن.

وبينما أكتب، تذكرتُ هيفاء، فبدأ قلبي يتألم، ودموعي تنهمر.

قلت:

سأعود إليها... لا يحق لي أن أنساها. لقد تعلمتُ ما يكفي.

غيّرتُ طريقي نحو العودة.

وفي طريقي، التقيتُ بذلك الرجل الذي أعطيته الرسالة، فقال لي:

أعتذر، لم أستطع إيصالها. هاجمنا قطاع الطرق وسرقونا.

قلتُ في نفسي:

هذه حكمة أخرى من حكم الزمن، لا تتسرع في الاطمئنان أو القلق.

شعرتُ ببعض الراحة، وقلت:

ربما تكون بخير.

واصلتُ السير، حتى تعبت قدماي من المشي.

ثم رأيتُ رجلًا يجلس قرب الوادي، فقلت له:

يا رجل، ما همّك؟

قال:

كيف يكون لهذا العبد همّ، وهو لا يعرف أصله؟

قلت:

ماذا تقصد؟

قال:

أنا يتيم، لا أب، لا أم، ولا إخوة.

استرجعتُ ذاكرتي، ثم قلت:

أنت، أنت الرجل الذي رأيته في ذلك الحلم.

قلتُ له:

كيف تراني الآن، وابتسامتي خرقت خدودي؟

نظر إليّ وقال:

أراك شابًا خلوقًا، وربما شاعرًا.

قلتُ له:

لماذا لا تقول إنني أشبه الجوهرة الزرقاء؟

نظر إليّ باستغراب وقال:

هل جننت؟

قلت:

ربما، لقد جننت بها، لقد بعثرت صفاء تلك المياه الذي كان في نهري يسبو بكل صفاء.

ثم صمتُّ قليلًا وقلت له:

أعتذر.

وغادرتُ المكان، وأنا أتساءل:

هل ما رأيته كان حلمًا فقط؟ أم أنه كان حقيقة لا يفهمها عقلي؟

وأكملتُ سيري وأنا أتحدث بداخلي. تذكرتُ ذلك الرجل بأنه هو من قال لي إنني أشبه الجوهرة الزرقاء، والآن يقول لي: شاعر.

هل أصبحتُ أرى بعيوني الطيور، أم أن ذلك الحلم كان مجرد جاثوم اكتسح عقلي وأخذني إلى تلك الفوهة الخيالية التي تشبه السبات؟

حينئـذٍ فهمـتُ أن لـيس كـل مـن يـتكلم شـعرًا يكـون شاعرًا حقيقيًا، بل الشاعر الحقيقي هو من يكون كقطعة من الزمن.

الفصل العاشر

الكتاب والجن

وأنا في طريقي، كعادتي، وجدتُ رجلًا كبيرًا في السن منغمسًا في مكتبته الترابية. كانت رائحة غريبة تنبعث من مكانه، وشعره يغطي وجهه بالكامل، وأظافره طويلة، والشموع تملأ أقنيات المكتبة المتلاشية، وخيوط العنكبوت تتدلّى من السقف كأنها غيوم.

أدهشني منظره، حتى قال لي:

ما بك يا شاب تنظر إليّ هكذا؟

استفقتُ من تأمّلي وقلت:

أريد أن تعطيني بعض الكتب لأقرأها.

قال:

سأعطيك كتابًا واحدًا، وإن أنهيته في وقت قصير، سأمنحك إياه.

قلت:

ولماذا؟ إن قرأته، فما الفائدة من حمله معي؟

قال:

الكتـب تُـؤنس، حـتى بعـد قراءتهـا، تـبقى رفيقـة في الليالي.

رددتُ عليه بكل ثقة:

كلامك صحيح.

ثم قال:

يبدو من حديثك أنك شاب ناضج وتجيد التعبير.

ترددتُ قليلًا، ثم قلت:

أنا شاعر، وقد رحلت من قريتي لأتعلم ما عجز عنه قلمي.

قال:

حسـنًا، سـأعطيك ديوانًـا عزيـزًا عـليّ، سـيفيدك في تحسين شعرك.

شكرته وأخذتُ الكتاب، ثم واصلتُ طريقي وأنا أقرأه.

وفجأة، لمحتُ وميضًا أزرق يخرج منه... كأنه يعرفني.

ثم خرج لي جني، وقال وهو يضحك:

هل وثقتَ في ذلك الرجل وأخذت منه الكتاب؟ هذا شعر الجن.

قلتُ دون خوف:

وما المشكلة؟ إن كان شعرًا جيدًا، فلا يهم.

قال:

أنت إنسان "زهري"، لا يمكنني السيطرة عليك.

قلت:

أعرف ذلك.

قال ببرودة:

ستأتي معي إلى قبيلتنا، وهناك ستقابل شعراء كثيرين.

قلت:

لا أريدكم، ولا أريد معاشرتكم.

قال بعصبية:

ستأتي بالقوة، لأنك قرأت الكتاب.

فجأة، وجدتُ نفسي في قصرٍ كبير، مزخرف بطريقة غريبة لم يستوعبها عقلي. أدخلني إلى ملكهم.

قال الملك بصوت مرعب:

لماذا لم ترد أن تأتي معه؟

قلت بثقة النفس:

ومن أنتم حتى آتي عندكم؟

غضب وقال:

ما هذه الجرأة؟

قلت بكل افتخار:

أنا أؤمن بالله، ولا أخاف إلا منه.

صرخ وقال:

اذهبوا به إلى السجن، حتى تتلاشى عظامه!

أُدخلتُ إلى السجن، وكان غريب الشكل، يفوق خيال البشر. كان هناك جن مسلمون سُجنوا بسبب إيمانهم.

جلستُ بجانب أحدهم وقلت:

لماذا لا تواجهونه؟

قال:

نحن لا نخافه، نحن نخاف الله.

شعرتُ بالراحة، وقلت:

الحمد لله.

ثم تحدثتُ بصوت عالٍ:

سأصلي بكم.

بـدأنا نصـلي، وكـان هنـاك جـني يصرـخ. اقتربـتُ منـه وقلت:

هل تعرف الإسلام؟

قال:

نعم.

قلت:

ولماذا لا تسلم؟

قال:

يعذبونني إن صليت.

قلت:

قـل مـعي: أشـهد أن لا إلـه إلا الله، وأشـهد أن محمـدًا رسول الله.

قالها، رغم الألم، وبدأ يقوى يومًا بعد يوم.

وفي يومٍ جاء جني وقال لي:

ستخرج وحدك.

قلت:

لن أخرج حتى يخرج الجميع.

ذهب وأخبر الملك، فجاء إليّ وقال بدهشة:

ما هذه القوة التي تسري في جسدك؟

قلت:

هي من الله.

سكت، طال سهوه، ثم قال:

أطلقوهم.

خرجنا جميعًا، وعدتُ إلى طريقي.

حينها أدركتُ أن الإنسان لا يمكن الوثوق به دائمًا؛ فذلك الرجل كان يعلم حقيقة الكتاب، لكنه خدعني.

هكذا هي الحياة، تعلّمك بالقوة، رغمًا عنك.

ولم أكن أعلم أن كل ما كان ينتظرني في هذه الهجرة، سيكون ليس من عالم البشر.

القسم الثالث

الإدراك والعودة

الفصل الحادي عشر

شعور بفقدان الرفيق وهمسات الجوهرة

بدأ ديواني يمتلئ نوعًا ما. وأنا في طريقي، كالعادة، أصبحت طريقي كالكتاب؛ كل صفحة أخطوها أجد فيها حدثًا لأتعلم منه حكمة. فرأيت رجلًا يحفر بئرًا، فقلت له:

السلام عليكم.

فردّ عليّ:

وعليكم السلام يا بني.

قلت له:

لماذا تحفر هذا البئر؟ وهل تعلم أن في جوفه سيكون ماء؟

قال لي وهو يحفر:

يا بني، كل ما هو صعب ورديء في هذه الحياة سببه عدم توكّل الإنسان على الله. كل شيء سيأتيك، ولو كانت البداية مستحيلة.

قلت له:

كلامك على حق يا عم، وهل أساعدك في الحفر؟

قال لي:

مرحبًا.

وبينما أحفر بالفأس، قال لي:

رأيت وجهك غريبًا عليّ في هذه القرية.

قلت له:

نعم يا عم، أنا غريب، وجئت لأتعلم نبضة الصبر وقسوة الحياة. إنني شاعر، وأدوّن كتابي منذ أشهر في هذا الرحيل.

قال:

جيد يا بني، سررت بلقائك.

بعدها أصبحت الشمس فوق رؤوسنا، وجاءت فتاة جميلة، لها شعر أحمر يتطاير مع الريح، كأنه قمح ما زال في الأرض في موسمه، وتحمل في يديها سلة فيها وجبة الغذاء.

قال لي أبوها إنها ابنته الوحيدة. وضعت الغذاء على الأرض بجانب الشجيرة ثم ذهبت.

قال لي أيضًا:

هل تتزوجها وتعيش معنا هنا وتعمل معي في الأرض؟ إنـني رأيـت فيـك شخصًـا خلوقًـا ومحترمًـا، وتعـرف بحـق الزمن.

قلت له بكل وفاء:

يا عم، أنا أحب فتاة أخرى، ولن أحب غيرها.

رد بالاحترام:

بني، أنت من تقرر.

تبسمت وقلت له:

شكرًا على تفهّمك لي.

ما زلنا نحفر حتى صار الليل يغطي النهار، فذهبت معه إلى بيته لنكمل غدًا، إن شاء الله، الحفر.

دخلتُ إلى غرفتي، صليت، وجلست على فراشي، ثم بـدأت أفكـر في حـالي. وبينمـا كنـت سـاهيًا، قـادني السـهو، فرأيت الجوهرة الزرقاء التي أتت في منامي السابق، في ركن البيت، ساكنة تنظر إليّ، كأنها اشتاقت إليّ.

نهضتُ من مكاني واقتربتُ منها، وأنا أنظر إلى عينيها، لأنني أعرف أنها هيفاء، اشتاقت إليّ. رفعتُ يدي لألمسها لأول مرة في حياتي، كي أشعر بأنها فعلًا تحبني. ومع اقتراب يـدي إليهـا، ابتعـدت وسـكنت في مكانهـا. بـدأت أنظـر إليهـا

دون أن أرمش ولو رمشة، لكنها كسرت شوقي لمعرفتها، وتلاشت.

ارتعشتُ من مكاني بعد ذلك السهو، وقلت بصوت عالٍ:

يا جوهرتي الزرقاء، لماذا تفعلين بي هكذا؟ لقد زعزعتِ عقلي. هل أنتِ هيفاء أم نفسي أم شيء آخر؟

سمع الرجل صوتي يتردد بين جدران البيت في الليل، فجاء مسرعًا وقال خوفًا عليّ:

يا بني، ما بك تصرخ؟

قلت له:

أعتذر يا عم إن كنت أفزعتكم من نومكم، فقط في أحلامي أصرخ، أعتذر.

قال لي:

لا مشكلة يا بني.

استيقظنا باكرًا وذهبنا لإكمال الحفر. أصبحت تربة البئر لزجة، وكان الماء قد اقترب. وبينما كنت أحفر، بدأ الفأس يقتلع من مكانه، فواصلت الحفر بيدي، فوجدت صندوقًا.

تفاجأ الرجل، كان الصندوق كبيرًا نوعًا ما. فتحته فوجدته فارغًا.

قال لي:

سنحرقه.

قلت له:

دعه يبقى عندي، قد تكون فيه حكمة ما.

اقترب الليل وما زلنا نحفر، لكن بالي ظل مشغولًا بذلك الصندوق.

حلّ الليل، وعدنا إلى المنزل. دخلت ومعي الصندوق، وبدأت أنظر إليه: لماذا هو فارغ ومدفون في قاع الأرض؟ هل فيه لعنة ما، أم شيء مفيد؟

لكنني قلت:

ما هو إلا صندوق فارغ، سأضع فيه أغراضي.

وضعتُ فيه أغراضي ونمت.

في الصباح ذهبنا لنكمل الحفر، وكان هذا اليوم مختلفًا ومحظوظًا، فقد خرج الماء.

فرح الرجل فرحًا شديدًا وقال:

يا بني، ستأخذ أجرًا كبيرًا لمساعدتك في هذا البئر.

قلت له:

يا عم، ما دام فيه خير، فستجدني فيه دائمًا.

قال بفرح شديد:

بما أنك دخلت علينا بالخير، سأمنحك بغلًا تكمل به سفرك.

قلت له:

شكرًا يا عم.

وبدأت أبكي على حماري الذي كان معي منذ خروجي من القرية.

قال:

ما يبكيك يا بني؟

قلت:

أبكي فقط على الحال الذي وصلت إليه.

ذهبت معه إلى المنزل لأخذ أغراضي والصندوق والبغل. دخلت الغرفة التي أنام فيها، وفتحت الصندوق لأتفقد أغراضي، فوجدت الملابس قد تضاعفت، وتكاثرت أغراضي إلى الضعف.

تراجعتُ خطوة إلى الوراء، وقلت:

ما هذا؟!

كنـت أظـن أن أغلـب الأشـخاص الـذين ألقـاهم في رحيلي سيئون، لكن حدث العكس في هذه المرة.

الفصل الثاني عشر

قرار العودة

كلما حاولتُ أن أقتنع بما أمرّ به حاليًا، ينطفئ عقلي كشمعةٍ وُضعت على نافذة في غرفةٍ مظلمة. ما زلتُ إلى الآن لا أعرف من تكون تلك الجوهرة، وماذا تعني لي، وهل ستكون هي الحلّ لألغازي الأبدية والفلسفية؟ لا أظنّ ذلك، لكنها تتجسّد كما تنبغي.

هل ستكون هيفاء؟ أم النفس التي تسكن جوفي؟ أم هي الحياة التي تطاردني يومًا بعد يوم؟ هكذا ملأ الزمن صحن روحي حتى انسكب.

لكنني اشتقتُ إلى هيفاء، وسأعود الآن.

غير أن هذا الصندوق، ماذا أفعل به؟ هل أعيد دفنه أم أعطيه لعائلة فقيرة؟ لكنه قد يفسدهم، ويُظهر فيهم الطمع، فتصبح نواياهم معلّقة بالمال والحسد.

قلت:

سأدفنه.

بعـدما دفنتـه، ركبـتُ البغـل الـذي أهـداني إيّـاه ذلـك الرجـل، وانطلقـتُ نحـو قـريتي، مبتسـمًا بمـا فعلـت، وقـد فككتُ ألغازًا كثيرة من هذا السراب الزمني.

كلّ الأشياء التي تصادفك ليست عابرة كما نظن، بل هي مقـدّرة. كلّ مـا وقـع مـعي كان مقـدّرًا، والأقـدار لا مفـرّ منها.

لقـد ملأتُ كتابي بالعديـد مـن الحكم والألغـاز والعِبر. أمّا عقلي، فقد تعلّم أشياء كثيرة:

تعلّمـتُ مـن الحمـار الـذي رافقـني ثـم رحـل حكمـة الصبر...

ومن المرأة التي تعيش وحدها تعلّمت التوكّل على الله الرزّاق...

ومن التحدّيات التي واجهتها تعلّمت ألا أخاف...

ومن الرجل الذي أعطاني كتاب الجن تعلّمت أن ليس كل ما يُعطى يُفهم كما هو.

كلّ هـذه الأشـياء كانـت اختبارات، ومـن أجلها أتيتُ، وقطعتُ مسافاتٍ طويلة لأتعلم ما اشتكى إليّ به القلم.

والآن، أستطيع أن أقول إنني تعلّمتُ حكمة الزمن.

وعند عودتي، سأكتب أشعارًا كثيرة،

وسأعلّم أطفال القرية الشعر، وجوف الزمن.

لكنني لم أكن أعلم أن العودة دائمًا تكون جميلة.

الفصل الثالث عشر – الأخير

وصول إلى القرية

دخلتُ القرية، وسابت من أنفي رائحة الموت. كنتُ أعرف أنني سأعود، لكنني لم أجد كل شيء كما كان.

هذه المرة عدتُ بدون الحمار الذي أخذته من عند أبي، وجئتُ فقط بذلك البغل الذي أهداني إياه ذلك الرجل.

جلستُ فوق الجبل أرى قريتي، كم أصبحت متلاشية. نزلتُ إليها لأفتقد وحشتي التي فاقت الحدود.

دخلتُ أولًا إلى منزل أمي، فوجدتها على خير، لكنها أصبحت متعبة نوعًا ما. أمّا أبي، فكما تركته، ما زال كما كان، صلبًا كجذعٍ قوي. وأما إخوتي، فمنذ رحيلهم للعمل، ما زالوا هناك.

جلستُ أتحدث مع أمي قليلًا، وقلت لها:

أمي، لقد تعلمتُ سرّ الزمن، وأريد أن أعلّم أطفال القرية الشعر.

لكنها لم تكن قادرة على النظر في وجهي.

قلت لها:

أمي، ماذا يجري بك؟

قالت:

يا بني، أنت أصبحت فقيد الحب.

قلت لها:

كيف ذلك؟

قالت:

هيفاء، ذهبت.

قلت لها:

إلى أين ذهبت؟

قالت وهي ترتجف:

لقد ماتت يا بني، لقد ماتت.

في تلك اللحظة، حُبس عقلي عن التفكير، كأن شيئًا بداخلي قد انكسر، ربما كان فؤادي.

بدأت أمي تقول:

يا بني، ما بك؟ تكلم كي أطمئن عليك.

لكنني فقدتُ السيطرة عندما سمعت أنها ماتت. أصبحت أرى بعينيّ، لكن عقلي ساب مني.

صرتُ أسير في دروب القرية، وأصرخ باسمها:

هيفاء، هيفاء...

ذهبتُ إلى المقبرة، رغم أنني لم أكن أملك عقلًا يقودني، لكن روحي ما زالت تحسّ وتشعر.

كنت أتمايل بين الأعشاب والأشجار، وأصرخ باسمها، حتى وصلتُ إلى قبرها.

لمستُ تراب القبر، ودموعي تسيل على ملامحي، لكنني لم أكن أشعر بها، هل كانت صادقة؟ أم أنني فقدت حتى الإحساس؟

نمتُ على قبرها من شدة البكاء...

وذهب عقلي معها.

بعد وقتٍ طويل، بدأت عيناي ترى الجوهرة الزرقاء، التي كانت تتجول حولي منذ أول مرة رأيتها في الحلم. رأيتها تحت شجرة في المقبرة، تشرق.

نهضتُ بصعوبة، وذهبتُ إليها، وجلستُ بقربها، وأنا كالمجنون، لا أعرف ماذا أقول.

صار ضوؤها يزداد أكثر فأكثر، حتى دخل جسدي.

بدأت أرتعش كغصن شجرة تحت الريح، حتى انتهى ذلك الصدام داخلي، وهدأت، كأنها أعادت عقلي كما كان.

بدأت أتذكر أين أنا، وماذا أفعل هنا.

ثم سمعتُ صوتًا يخرج من داخلي:

أهلًا يا جسدي.

قلت:

من يقول أهلًا بجسدي؟

قالت:

الجوهرة الزرقاء، نفسك.

قلت لها:

ما زلتِ تريدين هلاكي؟ لماذا كل هذا الظلام؟

قالت:

لقد ماتت.

قلت لها:

أخبرتني أمي، وفقدت السيطرة حينها.

قالت:

لم تفقد السيطرة، بل فقدت عقلك.

قلت لها:

ومن أعاد عقلي؟

قالت:

أنا نفسك.

قلت لها:

أريد أن أسألك سؤالًا واحدًا، ولن أسألك مرة أخرى. أعديني أن تجيبيني.

قالت:

أعدك.

قلت:

ما أنتِ؟ هل أنتِ نفسي؟ أم هيفاء؟ أم الحياة؟ أخبريني، وإن متُّ، سأموت بطمأنينة.

قالت:

أنا...

وتردّد صوتها...

فجأة، بدأ جسدي يضعف، وثقلت أنفاسي، حتى خرجت روحي...

ومتُّ.

ومات حبّنا الذي لم يكتمل.

ولم أعرف ما تكون تلك الجوهرة الزرقاء...

لكنها علّمتني ما تكون النفس، بكل أسرارها.

وهنا انتهت رحلتي في هذا السراب، وبدأت رحلتي داخل نفسي مجددًا.

الخاتمة

لم أكن أعلم ماذا كان يجري بحالي، لكنني كنت أشعر بالراحة طوال هذه الهجرة النفسية. تعلّمت من هذه الرواية أسرارًا لم أكن أعلمها عن النفس، وعن الصدق، وعن قسوة الحياة، وعن الغدر، وعن ذلك الصفاء الذي يمنحه لك إنسان دون مقابل.

حتى عندما كنت أكتب في الليالي، كنت أدرك كل ذلك في أعماق عقلي.

كانت تلك الجوهرة هي منبع ذلك الصفاء الذي في قلبي، ذلك الصفاء الذي لم يره أحد، سوى خالقي.

بعثرت أفكاري، وقاطعت شوقي، وسلبت مني سعادتي، وعشت معها خيالًا كنت أكتنزه في ركنٍ خفيّ من حواس عقلي.

وأريد أن أقول إن تلك الجوهرة علّمتني كيف تحترم نفسك، وتحترم جسدك، وتحترم كل شيء جميل يسري في عروقك. نحن نؤذي أنفسنا وحواسنا دون أن نشعر، ولو بالكلام الفاحش أو الجارح.

النفس ليست مجرد نفس، بل هي جزء عظيم من الإنسان، وهي عموده الفقري. وإن هجرتك نفسك لأنك

أهملتهـا، ستصـبح كـالمجهول، لا أحـد يـراك، ولا أحـد يمنحك قيمة، ولا حتى تعرف أنت من تكون.

تحدثتُ في هذه الرواية عن النفس، ليس لأنني أريد فقـط أن أكتـب أحـداثًا وأفـرح بـأنني حققـت إنجـازًا كبـيرًا وأصبحت كاتبًا، لا، ليس هذا ما أردته.

بل أردت أن أقدّم من خلال هذه الرواية جرعة وعي للناس من جهة النفس، لا مجرد ترفيه أو كلمات جميلة. أردت أن أوقظ ذلك الغسق الذي يسكن أعماق الإنسان عندما يقرأ.

هكذا أرويتُ قلبي بأجمل ما كتبت في ريعان شبابي.

نعم، أنا أكتب الشعر، لكنني أؤمن بنفسي، وأعلم أنني أمتلـك موهبـة في الكتابـة، وفي اختيـار مواضـيع تعـالج نفسية الإنسان. وأسعى دائمًا أن أعزّز كلماتي بحِكمٍ وعِبر من الحياة، لعلّ القارئ يستفيق وهو يقرأ.

دمتم بخير.

وأتمنى أن تكون هذه الرواية التي قرأتها حتى الآن قد لامستك...

واستمتعت بعمقها الأدبي.

انضم إلى مجموعة دار بسمة على واتساب، من هنا

تصفح إصدارات أخرى عبر مكتبة دار بسمة، من هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايين من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.َ

المحتويات

مقدمة 6
مقطع افتتاحي 9
القسم الأول 10
نداء النفس بين الحلم والبحث 10
الفصل الأول 11
الجوهرة في سكون الليل 11
الفصل الثاني 13
أنا نفسك 13
الفصل الثالث 16
بيت العجوز 16
الفصل الرابع 21
على هيئة جوهرة 21
الفصل الخامس 28

للاستيقاظ..... 28
القسم الثاني 33
هجرة وتعلم بين الزمن..... 33
الفصل السادس..... 34
رسالة الرحيل..... 34
الفصل السابع 38
امرأة في الخلوة..... 38
الفصل الثامن 43
الحمار الأعمى..... 43
الفصل التاسع 47
الشعراء الساخرون..... 47
الفصل العاشر..... 54
الكتاب والجن 54
القسم الثالث 60
الإدراك والعودة 60
الفصل الحادي عشر..... 61
شعور بفقدان الرفيق وهمسات الجوهرة..... 61
الفصل الثاني عشر 68
قرار العودة 68

الفصل الثالث عشر - الأخير..... 71
وصول إلى القرية 71
الخاتمة..... 77

الجوهرة الزرقاء

أيوب علمي

كاتب وشاعر مغربي من مواليد 2003 بنواحي مدينة وزان. صدر له ديوان شعري بعنوان «لسان أعمى» عن دار بسمة للنشر الإلكتروني. يتابع دراسته بالمعهد العالي للسمعي البصري والسينما بالرباط، سنة ثالثة. يجمع في تجربته بين الكتابة الأدبية والرؤية البصرية في سردٍ مميز. يشغفه عالم الفن والكتابة، ويطمح لترك بصمة إنسانية صادقة في أعماله

الجوهرة الزرقاء رواية عربية تأخذك في رحلةٍ داخل النفس، حيث تختلط حدود الواقع بالخيال، ويتحوّل البحث عن المعنى إلى تجربة شعورية عميقة. من خلال أسلوب أدبي هادئ وتأملي، يرافق القارئ شابًا يترك قريته ليخوض طريقًا مليئًا بالتساؤلات، في عالمٍ تتداخل فيه الرموز مع الحقيقة، وتصبح أبسط اللحظات أبوابًا لفهم أعمق للذات والحياة.

في هذا العمل الذي يندرج ضمن الأدب الروحي والفلسفي، لا تُروى القصة بقدر ما تُعاش. "الجوهرة الزرقاء" ليست مجرد عنصر في الحكاية، بل رمز يتغيّر مع كل خطوة، يقود البطل — وربما القارئ — إلى مواجهة مشاعره، ومخاوفه، وأسئلته التي طالما تهرّب منها. بين الحب والفقدان، وبين الصمت والبوح، تتشكل تجربة قراءة تنتمي إلى الروايات العربية التي تترك أثرًا داخليًا طويل الأمد.

هذا الكتاب موجّه لكل من يبحث عن رواية عربية مختلفة، لكل قارئ شغوف بالأدب الذي يلامس الروح ويطرح أسئلة دون إجابات جاهزة. إذا كنت من محبّي القراءة العميقة، ومن المهتمين بعالم نشر الكتب والروايات التي تجمع بين السرد والشعور، فإن الجوهرة الزرقاء ليست مجرد كتاب... بل رحلة ستجد فيها شيئًا يشبهك

Bassmabook
00212771814934
darbassma1@gmail.com